مجلة الباحث – المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري – بوزريعة – الجزائر

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

أهمية الوقف في تطور المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الأوسط من خلال نوازل " المعيار " للونشريسي، ق (07-09هـ)

The role of Al Awqaf in the development of the religious and the scientific institutions in the Central Maghreb through fatawas: "Al-Miyar " El Ouancharissi (century 7 to 9AH)

ط.د. محمد سعدي

مخبر التاريخ والحضارة والجغرافيا التطبيقية،

المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، بوزريعة، (الجزائر)

mohamed.saadi@ensb.dz

أ.د. عبد الحكيم بوزايدي

المدرسة العليا للأساتذة الشيخ العلامة مبارك بن محمد إبراهيمي الميلي الجزائري، بوزريعة، (الجزائر)

bouzaidi.abdelhakim@ensb.dz

تاريخ الإرسال: 2024/11/01 تاريخ القبول: 2025/02/07 تاريخ النشر: 2025/03/31

الملخص:

اهتم العلماء والفقهاء ورجالات السلطة على حد سواء بالمؤسسات الدينية والعلمية، وذلك بالإنفاق المباشر عليها، أو عن طريق تطبيق نظام من نظم الإسلام المعروفة، والمتمثل في الأوقاف أو الأحباس، وهذا بغية الحفاظ عليها، والعمل على ترقيتها بطريقة نفعية وذاتية؛ ما يُنتج خيرا عميما وتطورا ظاهرا جليا لتلك المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الإسلامي عموما، والمغرب الأوسط خصوصا؛ وقد ظهر ذلك جليا ولافتا للنظر بوجه خاص في القرون الهجرية: السابع والثامن والتاسع.

لقد أدت الأوقاف (الأحباس) دورا هاما في المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا، خلال العصر الوسيط، وكانت البداية مع بواكر الفتح الإسلامي للمنطقة، وساير كل مدة الفتح إلى أن أصبح المغرب ولاية إسلامية، وزاد الاهتمام به وزادت أهميته في المراحل اللاحقة، بداية بمرحلة الولاة، ومرورا بمرحلة الدويلات التي ظهرت بالمغرب الأوسط، أين كان نصيب المؤسسات الدينية مثل: المساجد...، والمؤسسات العلمية مثل: المدارس...، حظا وافرا وكبيرا من عوائد وأملاك الأحباس (الأوقاف)، نظرا لأهميتها في حياة سكان بلاد المغرب الأوسط وحكامها خلال الفترة الوسيطة.

ذكر الونشريسي في كتابه "المعيار" فتاوى ونوازل عديدة، تبين مدى اهتمام حكام وعامة سكان بلاد المغرب الأوسط الميسورين من أصحاب الأموال والأملاك بالحبس والوقف على المؤسسات الدينية والعلمية، الأمر الذي أسهم في تطورها وتعاظم مكانتها وأهميتها بشكل كبير ومميز، ما انعكس بشكل إيجابي وفعال على المجتمع والسلطة بالمغرب الأوسط على حد سواء.

الكلمات المفتاحيّة:

الوقف؛ المؤسسات الدينية؛ المساجد؛ المؤسسات العلمية؛ المغرب الأوسط؛ الونشريسي؛ المعيار؛ المدارس؛ النوازل.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

Abstract:

Al Awqaf -Al Ahbas- has do an important role in the Islamic Maghreb in general and in the Central Maghreb in particular during the Middle Ages. The beginning was with the early Islamic conquest of the region, and this conquest continued until Morocco became an Islamic state. The interest in Al Awqaf- Al ahbas -and its importance increased in the following stages: starting with the stage of governors and then the stage of little states that appeared in the Central Maghreb.

The share of religious institutions, such as: mosques..., and scientific institutions, such as: schools..., was abundant and large from the revenues and property of the Ahbas – Al Awqaf - due to its importance in the lives of the inhabitants of the Central Maghreb and its rulers during the intermediate period.

El Ouanchariss mentioned numerous fatwas in his book "Al-Miyar", showing the extent of the interest of the rulers and the general population of the central Maghreb, who are wealthy and owners of money and property, in Ahbas and Al Waqf on religious and scientific institutions, which contributed to their development and the intensification of their mission in a large and distinctive way, which reflected positively and effectively on society and power in the Central Maghreb.

Keywords:

Al Waqf; Religious Institutions; Mosques; Scientific Institutions; Central Maghreb; El Ouanchariss; Al-Miyar; Schools; Nawazil.

1. مقدمة:

عرف المغرب الإسلامي منذ الفتح، تطورا حضاريا وثقافيا ودينيا نتيجة مؤثرات عديدة، عملت على خلق طبيعة حضارية، من خلال نظم إسلامية مستجدة وجديدة، الأمر الذي أنتج تطورا حضاريا مشهودا في كل مناحي الحياة داخل هذه البلاد، جعل منها منارة يشع نورها على أرجاء وربوع الجوار، وكان من أهم الجوانب التي عرفت الازدهار والتطور اللافت، الجانب الديني والعلمي، ذلك أن الأساس الديني وانتشار الإسلام والعربية في جميع أقاليم المغرب الإسلامي وتعديه إلى بلاد الأندلس، أسهم في ظهور التميز والتنوع الفكري والعلمي، شكّل أفكارا وأنتج طرائق، عملت على صيانة الدين وحمايته وتنمية الروح والعقل، ومن ذلك الاعتماد على العلم كركيزة أساسية في التطور الحضاري، والاهتمام بالمؤسسات الدينية والعلمية التي تعتبر من المستلزمات الأساسية لسكان المغرب الإسلامي طيلة الفترات التي أعقبت عملية الفتح؛ ومن ثَمّ تحول المجتمع في هذه البلاد إلى مجتمع إسلامي بالمعنى الذي تحمله الكلمة، وفي شتى الميادين.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

اهتم العلماء والفقهاء ورجالات السلطة على حد سواء بالمؤسسات الدينية والعلمية، وذلك بالإنفاق المباشر عليها، أو عن طريق تطبيق نظام من نظم الإسلام المعروفة، والمتمثل في الأوقاف أو الأحباس، وهذا بغية الحفاظ –من خلالها– على هذه المؤسسات، والعمل على ترقيتها بطريقة نفعية وذاتية؛ ما يُنتج خيرا عميما وتطورا ظاهرا وبارزا لتلك المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الإسلامي عموما، والمغرب الأوسط خصوصا؛ وقد ظهر ذلك جليا ولافتا للنظر بوجه خاص في القرون الهجرية: السابع والثامن والتاسع.

لقد أسهم الوقف بشكل كبير في تطور مختلف المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الأوسط؛ وتحمل لنا كتب النوازل مادة هامة تثبت ذلك وتبينه، وتظهر جليا أهميته في ترقية وتطوير تلك المؤسسات، وتعاظم شأنها في التطور الحضاري لأهل المغرب الأوسط بوجه خاص.

لعل من أهم تلك الكتب النوازلية، بل هو أبرزها كتاب: " المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب"، والذي أفرد مؤلفه الجزء السابع الذي يحوي 515 صفحة، للحديث عن موضوع النوازل المتعلقة بالأحباس، إضافة إلى نوازل متعلقة بذات الموضوع في أجزاء أخرى مختلفة؛ وقد شملت مواضيع هذه النوازل مختلف جوانب حياة أهل المغرب والأندلس في مختلف مناحي الحياة، وخصوصا الدينية والعلمية، والاقتصادية والاجتماعية وغيرها.

فكيف أسهمت الأوقاف (الأحباس) في تطور وازدهار المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الأوسط من خلال نوازل " المعيار" للونشريسي في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع للهجرة النبوية الشريفة؟ وكيف أثر ذلك على نظام حياة أهل تلك البلاد؟

للإجابة عن ذلك انتهجنا خطة تمثلت في الآتي:

بدأنا بمقدمة، تضمنت تقديما مختصرا للموضوع، حيث أبرزنا أهميته والإشكالية المرتبطة به، ثم أعطينا نبذة عن الوقف والأحباس في بلاد المغرب الإسلامي، بعدها نبهنا على أهمية المؤسسات الدينية والعلمية في الحياة العامة لأهل المغرب الأوسط، ثم ذكرنا أهمية الوقف في تطوير المؤسسات الدينية، وبعدها أهميته في تطوير المؤسسات العلمية، بالمغرب الأوسط، في الفترة الممتدة من القرن السابع إلى التاسع للهجرة، من خلال معيار الونشريسي –رحمه الله تعالى–؛ ثم ختمنا هذه الأسطر بخاتمة تضمنت أهم النتائج المتوصل إليها، وأهم التوصيات.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

2. نبذة عامة عن الوقف والأحباس في بلاد المغرب الإسلامي:

يعد استقرار الإسلام في بلاد المغرب الإسلامي وتحول المجتمع في معتقداته وعباداته وعاداته، المنطلق الأساس لظهور أنظمة جديدة في مختلف مناحي الحياة، الدينية، الاجتماعية، الاقتصادية، وغيرها؛ ولعل من أبرزها نظام الوقف، الذي كان [1] مسايرا لعملية الفتح الإسلامي في بلاد المغرب ومرافقا لها، ذلك أن من مقتضيات نشر الإسلام، إنشاء مؤسسات دينية وتعليمية، تربي الناس على تعاليم الإسلام السمحة حتى ترسخ العقيدة الصحيحة، وتُزال العادات والتقاليد القبيحة؛ وذلك إن دل إنما يدل على أن عملية الوقف كانت عملية روحية عفوية تنم عن الاهتمام بالنظم الإسلامية التي ينتج عنها المنفعة العامة والخير العميم للناس. إذ يعتبر من الصدقات الجارية التي لا ينقطع نفعها، حيث أعطاه الإسلام مكانة عظيمة، ومنزلة سامية ففي القرآن الكريم، حثت آيات كثيرة على البر وفعل الخير ومنها قوله تعالى: " لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ (92) " (آل عمران: 92). ومن السنة النبوية الكثير من ذلك أيضا، فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحث أصحابه ويبين لهم فضل الصدقة الجارية... ومنها ما ورد في صحيح البخاري في قوله عليه الصلاة والسلام: "من احتبس فرسا في سبيل الله، إيمانا بالله وتصديقا بوعده، فإن شبعه وريه وروثه وبوله في ميزانه يوم القيامة "[2]. فالوقف فرصة للمسلم حتى يستزيد من الخير، ويفتح أبوابه ويستمر ثوابه أثناء حياته وبعد موته، إذ من منفعته تميزه بخصوصية الدوام والاستمرارية.[3]

توالى الاهتمام ببناء المؤسسات الدينية مع استمرار عملية الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، فإضافة إلى اهتمام الفاتحين بحفر الآبار وتوفير مصادر المياه، واصل أهل المغرب بعد عملية الفتح وما تلتها من عصور لاحقة في المغرب الإسلامي الاهتمام بالوقف، لأهميته الكبيرة وفضله العظيم، حيث ذكر أن حكام الدولة الأغلبية (184هـ/296م)، اهتموا بإنشاء القنطرات على الوديان لتسهيل عبور المسافرين إلى الطرق المؤدية إلى مدينة القيروان[4]، وحتى الرستميين كان لهم نصيب من الوقف مثلما كان موجودا لدى الأغالبة والأدارسة [5]، ما يجعلنا نخلص إلى القول بأن الوقف كان من بين الوسائل الهامة والضرورية في الحضارة الإسلامية وظهر ذلك في الدويلات المستقلة بالمغرب الإسلامي خلال القرن الثاني والثالث الهجريين.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وباعتبار أن المغرب الأوسط عرف ازدهارا اقتصاديا كبيرا في عهد بني حماد سواء في ميدان الفلاحة وتربية الحيوانات أو في الصناعة والتجار، حيث كانت هناك منتوجات كبيرة كالحبوب والفواكه والكروم والزيتون وغيرها، حسب ما ذكره الرحالة والجغرافيون[6]، فهذا دليل على أهمية الأحباس وخاصة ما تعلق بحفر الآبار والقنوات، وتحبيس البساتين ومنابع المياه على الطرق والمسالك التجارية...، ما أدى إلى الازدهار الاقتصادي بوجه خاص، إضافة إلى ميادين أخرى. كذلك الشأن بالنسبة للمدن والحواضر التابعة للدولة الحمادية كانت بها بساتين ومزارع وضياع كثيرة أدت إلى توفر المحاصيل وازدهار التجارة والصناعة على حد سواء [7]، حيث عاش أهل المغرب الأوسط حالة من الترف والرخاء، كل ذلك يؤكد أن هذه الضياع والآبار كان لها نصيب من الحبس، إذ اعتبرت صدقة جارية، وهذا ما ساعد على تطور الحياة الاقتصادية والاجتماعية للحماديين خلال هذه الفترة.

الأمر نفسه بالنسبة لدولة الأدارسة، فقد أدى الوقف دورا مهما في تاريخ مدينة فاس، فلم تهمل قضية الأحباس وعلى رأسها بناء المؤسسات الدينية، فالمساجد كانت أساس ذلك، ومن أمثلة ذلك ما ذكر عن إدريس الأكبر لما افتتح مدينة تلمسان سنة 173هـ/789م صلحا بنى مسجدا، ونسبه إليه[8]، إضافة إلى المسجد الذي بنته السيدة فاطمة بنت محمد الفهري القيرواني والتي ورثت أموالا كبيرة من والدها، فبعد أن استقر رأيها على بناء جامع القرويين، بدأت الأشغال في العام ذاته (245هـ/859م)[9]، إذ اعتبر من أكبر وجوه الوقف الذي أدى أدوارا هامة طيلة العصور التي تلت، وهذا نظرا لأهميته الروحية والعلمية التي أداها كمؤسسة وقفية دينية، ومازال إشعاعه التاريخي والروحي والعلمي عبر العصور.

أما على عهد الدولة العبيدية الشيعية في المغرب (296هـ/363هـ) فلم تهتم هذه الأخيرة بالوقف، حيث عملت على التأميم والسيطرة على أموال الأوقاف والمؤسسات الموقوف عليها، وأعطت حرية التصرف في أموال الأحباس لقضاتها على الأقاليم، فيما يرونه، وتقديم جزء كبير منها إلى رجالات السلطة [10].

أما الدولة المرابطية فقد عملت أساسا على ضبط الأمن ومحاربة المفسدين وقطاع الطرق، وعملت على تحصيل الأموال، فألغت الضرائب الحكومية التي تفوق طاقة التجار، وحلت محلها مصادر أخرى كالزكاة،... فتطورت الحياة الاقتصادية بوجه خاص، حيث وزعت الدولة الأراضي

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

والممتلكات في عهد المنصور بن أبي عامر على الجنود المرابطين على الثغور حتى يتم استغلالها بالحسنى[11]، كما اهتمت اهتماما كبيرا بوقف جزء شاسع من هذه الأراضي والضياع والبساتين، نظرا لأهمية الوقف في ازدهار حياة المجتمعات في كل مناحي الحياة الدينية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية...

كما تعتبر الدولة الزيانية من أهم الدول التي نشأت بالمغرب الأوسط وعمرت أكثر من ثلاثة قرون (633-962هـ/1554م) والتي انتشر بها الوقف بشكل كبير وملفت، كان سبب ذلك تشابك عدة ظروف ميزت تاريخ المنطقة خلال القرون المتأخرة، أسهمت في تطوير الأوقاف، منها الظروف السياسية والعسكرية إضافة إلى العوامل الدينية والاقتصادية والاجتماعية... [12].

عرف المجتمع الزياني كغيره من المجتمعات أصنافا من الوقف، سواء الوقف الخيري أو الوقف الذري، وكان للسلطات في الدولة الزيانية حرص كبير على تنظيم الممتلكات الوقفية وحسن إدارتها من خلال إشراف القاضي ومساعديه عليها، حيث كانت عملية توثيق الوقف والتشهير ضروريةّ لإثبات الممتلكات الوقفية، وذلك بتدوين كل المعلومات المتعلقة بها[13].

وبالمغرب الأقصى وفي الفترة المرينية عرف نظام الوقف والتحبيس انتشارا كبيرا نتيجة الاهتمام به من طرف الحكام من جهة، وعامة الناس من جهة أخرى، حيث حبس السلاطين والأمراء الكثير من الأراضي والعقارات في وجوه عديدة تمس الحياة الدينية والعلمية خاصة[14]، وذلك موازاة مع ما كان يعرفه نظام الوقف في باقي أقاليم المغرب الأوسط والأدنى والأندلس. لقد كانت عناية أهل الوقف تقصد بالدرجة الأولى على توفير مداخيل تسيير المساجد، وأماكن العبادة وتمويل المجهودات ذات التوجه الديني والعلمي خاصة.

والمتتبع لتطور الأحباس في بلاد المغرب الإسلامي طيلة العصر الوسيط، يدرك انها تستهدف بشكل كبير كل أنواع الوقف، لكن بوجه خاص ما تعلق بالوقف على الأهل والأعقاب، سواء من الأصول أم من الفروع، ومن ذلك الوقف على الزوجات والأولاد بهدف تأمين حياة كريمة لهم، وقد جاءت فتاوى عديدة في كتاب المعيار تظهر مثل هذا النوع من الأوقاف، ومنها أن رجلا من أهل تازة حبس وأوقف أملاكه على أولاده وأعقابهم، كما حُبست سنة 790هـ/1388م جناح بمدينة فاس، وحبست إحدى النساء القرويين حانوتين على أخيها[15]،... والملاحظ من كل هذا أن الوقف على

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الأهل والأعقاب سواء من الأصول أو من الفروع كان قائما بشكل هام في بلاد المغرب الإسلامي، وهذا ما يفسر درجة الترابط الأسري والاجتماعي بين سكان بلاد المغرب الإسلامي طيلة أغلب الفترات.

أما بالنسبة لقضايا الوقف في الدولة الموحدية فضئيلة، حتى وإن توفرت بعض النصوص المصدرية لعدد من أعمال الوقف من قِبل خلفاء الدولة الكبار، فهذا عبد المؤمن بن علي يحبس مجموعة من الحوانيت على أبناء رجل بجائي كان قد أحسن إليه هو وأصحابه حين رجوعه مع أبي تومرت [16].

كما نجد أيضا اهتماما بالغا بالتحبيس والوقف من أهل الأندلس، لما له من دور مؤثر وكبير في أغلب مناحي حياتهم الدينية والعلمية والاقتصادية والاجتماعية...، حيث كان الاهتمام بالأراضي الوقفية، التي كانت تمثل مصدرا مهما ومعروفا من مصادر الإنفاق على المنشآت ومختلف المؤسسات العلمية والدينية مثل: المساجد والمكتبات والمدارس وغيرها[17].

فبعد الفتح الإسلامي للأندلس ودخولها في رحاب الإسلام اهتم سلاطينها عبر العصور بالصدقة الجارية وتوقيفها، وكانت لها منزلة كبيرة لدى أهل الأندلس من العامة والخاصة فلم يكن من السهل الاعتداء عليها من طرف الأمراء والخلفاء أو غيرهم. ومن ذلك اهتمام أمراء البيت الأموي بالأوقاف، حيث حبس الأمير عبد الرحمن الأوسط (206-238هـ/821-852م) أملاكه بإحدى القرى على ابنته. [18]

أما بالنسبة الوقف في الميادين الاقتصادية وخصوصا التي تنتج أموال وأرباحا مادية، فله أثر كبير في تطور المؤسسات الدينية مثل بناء المساجد وتوسعتها، وضمان أجرة العاملين فيها، وكذا تشجيع العلم وبناء المدارس والكتاتيب وضمان أجرة المعلمين.

لقد شاركت في نظم الوقف والتحبيس وأعماله مختلف الفئات الاجتماعية، فقد أدّت المرأة الأندلسية مثلا دورا مهما في تحبيس أملاكها في وجوه الخير، حيث تذكر الروايات التاريخية أن إحدى بنات الأمراء والتي اتصفت بخصال الزهد والعبادة والرغبة في الخير، كانت تكتب المصاحف وتقوم بتحبيسها، كما ينسب إليها أحد المساجد، حيث توفيت 305هـ/917م، وقد كانت ظاهرة تحبيس المصاحف والكتب سمة بارزة لدى العديد من الفقهاء والعلماء في عديد حواضر الأندلس وغيرها [19].

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

ويمكن لنا أن نخلص إلا أن نظام الوقف أو الأحباس كان مسايرا للتطور التاريخي في بلاد المغرب الإسلامي منذ الفتح كونه مسايرا للدين الإسلامي الذي يدعو إليه ويحث عليه، فالوقف هو الصدقة الجارية التي تنفع المسلم في حياته وبعد موته لذا رأينا توقيف وحبس وجوه الخير منذ البدايات الأولى للفتح الإسلامي لبلاد المغرب، بداية بحفر الآبار والمواجل والعيون وبناء المساجد والجوامع، وغيرها، واستمرت الحال على مدى طول عملية الفتح المبارك، لتأتي العصور اللاحقة وتظهر كيانات سياسية عديدة، لم تفرط في عملية الوقف والتحبيس في وجوه الخير، فبالرغم من تراجعه في فترات، إلا أنه عرف في القرون الأخيرة من العصر الإسلامي الوسيط تطورا كبيرا في جميع الأصعدة والمستويات: الدينية، العلمية والاجتماعية والاقتصادية، السياسية والعسكرية، وهذا ما ساعد على تطوير المجتمع ورفاهيته وتماسكه، فكان له دور كبير في سيرورة وتطور وازدهار الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب والأندلس وغيرها، طيلة عصور طويلة.

3. أهمية المؤسسات الدينية والعلمية في الحياة العامة لأهل المغرب الأوسط:

يعد الفتح الإسلامي لبلاد المغرب تحولا حضاريا، وبداية هامة وأساسية للحضارة الإسلامية في المنطقة، فقد حرص المسلمون منذ خطواتهم الأولى على ثراه على البناء الروحي والعقدي من خلال طلب العلم وسلوك جميع السبل من أجل بلوغه، لذا كان للمؤسسات الدينية والعلمية الدور الفعال في ذلك، ويمكن تلخيص أهمية تلك المؤسسات في الآتي:

1.3 ــ أهمية المؤسسات الدينية في الحياة العامة لأهل المغرب الأوسط:

تعتبر المساجد عبر مراحل التاريخ الإسلامي المؤسسة الأولى، وبكورة المؤسسات التي يجب على المسلمين إنشاؤها والاهتمام بها، والمحافظة عليها، في ربوع المعمورة عموما، وفي بلاد المغرب الإسلامي خصوصا، قصد تشجيع الفاتحين على الاستقرار ومواصلة عملية نشر الإسلام، ومن نماذج ذلك ما نقل عن عبد الله بن أبي السرح أو عبد الله بن الزبير(27هـ،647) –رضي الله عنهما–، أنه قام ببناء مسجد قرب المكان الذي بنيت فيه بعد ذلك مدينة القيروان، وسمي بباب عبد الله، وأصبح فيما بعد أحد أبواب القيروان الشهيرة [20].

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

وعلى اعتبار أن المسجد هو عماد المؤسسات الدينية والعلمية والاجتماعية في العصر الوسيط، فقد عمل المسلمون الفاتحون على أن يكون أول ما يُبدأ به في اختطاط الحواضر الإسلامية، فالصحابي الفاتح عقبة بن نافع الفهري عندما اختار مكان بناء القيروان شرع أول ما شرع في بناء المسجد الجامع قبل دار الإمارة، وكانت هذه من سنن المسلمين في الحواضر السابقة، إنشاء المسجد الجامع ثم اختطاط الدور حوله، مثل حواضر: الكوفة، البصرة، الفسطاط،... وأغلب الحواضر التي سبقت قيروان افريقية[21] .

نستشف من خلال ما سبق أهمية المسجد الجامع في حياة المجتمع الإسلامي عموما، حيث عد مؤسسة دينية وعلمية، فهو مكان إقامة الصلاة وتعليم الناس القران الكريم، وأحكام الدين وعلومه المختلفة، ومركز الإمارة، ودار القضاء،... واستمر كركيزة أساسية في حياة أهل المغرب الإسلامي والأندلس عامة، وأهل المغرب الأوسط خاصة.

استمر اهتمام المسلمين في بلاد المغرب الاسلامي عموما وبلاد المغرب الأوسط خصوصا ببناء المسجد الجامع كأول مؤسسة، نظرا لأهميتها دينيا ودنيويا، فبنو حماد مثلا أسسوا مساجد بجاية وملالة وقلعة بني حماد وقسنطينة...، وكان أهم مساجد بجاية، الجامع الأعظم، ومسجد الريحانة، ومسجد النطاعين...، وسمي بالمسجد الأعظم نظرا لعظمته، إذ كان طوله 220 ذراعا وعرضه 150 ذراعا، وله 22 بابا بالإضافة إلى الباب الرئيس؛ إضافة إلى مسجد ملالة والذي سمي بمسجد عبد الله بن تومرت، ولم يعرف تاريخ بنائه؛ وهناك أيضا المسجد الكبير ومسجد المنار بقلعة بني حماد[22]. والإباضية أيضا عندما اتخذوا موضع تيهرت لإنشاء حاضرتهم، كان أول ما فعلوه اختطاط المسجد الجامع من أربع بلاطات واستعانوا في بنائه بأخشاب الشجر المنتشرة في المنطقة، وحوله انتشرت الدور والقصور والأسواق والحمامات وذلك سنة (144هـ- 761م)[23]

نخلص إلى أن بناء هذا العدد من المساجد، وبتلك التفاصيل الفنية والمعمارية، يبرز جليا أنها كانت في لب اهتمامات الحماديين، وذلك بعمرانها وتطويرها والمحافظة عليها، كفنّ معماري حمادي متميز عن الدويلات الإسلامية الأخرى في ذلك الوقت.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

يذكر عبد الرحمان الجيلالي – رحمه الله تعالى– أن دولة المرابطين وصل نفوذها إلى شرق مدينة الجزائر، حتى طنجة غربا، فالمرابطون سيطروا على أراضي المغرب الأوسط بداية من تلمسان ثم وهران والتنس وصولا إلى مدينة الجزائر (474هـ-1081م)[24]، والأكيد أنهم اهتموا خلال فترة سيطرتهم على أقاليم المغرب الأوسط بالمؤسسات الدينية مثل الجامع الكبير بالعاصمة الجزائر، وجامع تلمسان اللذين لا يزالان إلى غاية يومنا هذا يعدان من المؤسسات الدينية الفعالة، ذات القيمة التاريخية والحضارية الكبيرة.

أما الدولة الزيانية وأمراؤها فقد كانوا طيلة أغلب فترات حكمهم يحيطون المؤسسات الدينية والعلمية باهتمام كبير، نظرا لأهميتها الحضارية الكبيرة وذلك ما يعكس التطور الحضاري الذي بلغته، مع ظهور وبروز علماء وفقهاء كبار أسهموا في بناء التراث العلمي للمغرب الأوسط وحواضره. فالتعليم كان الصفة الملازمة لمساجد تلمسان مثلا، إلى جانب أداء العبادات فيها، حيث كانت تُشكَّل في المساجد حلقات علم تشمل مجموعة من العلوم كالأصول والفقه والتفسير ودراسة الحديث واللغة...، وحتى العلوم العقلية من رياضيات وطب...، والمعلمون الذين يسهرون على التدريس في البلاط الزياني يحصلون على إقرار البلاط[25]. ما يدل على أن حكام البلاط الزياني كانت لهم ثقافة واسعة تهدف إلى تشجيع دور المؤسسات الدينية وتوسيعها إلى الدور العلمي والتعليمي.

فالمؤسسات الدينية من مساجد ورباطات وزوايا التي انتشرت في أغلب أقاليم المغرب الإسلامي، ومنها المغرب الأوسط كان لها تأثير كبير، في الحياة الدينية والعلمية والاجتماعية، فالناس يتعلمون في المساجد مختلف العلوم، والعلماء والفقهاء يعتبرون ذلك نوعا من أنواع التعاون على البر والتقوى، ووسيلة هامة لتشجيع الناس على العبادة وقراءة القرآن، فمؤسسة المسجد، بالإضافة إلى وظيفتها الأساسية المتمثلة في إقامة الشعائر التعبدية، هي مقر اجتماعي، ومكان للقضاء، يجمع الناس فيه للفصل بين خصوماتهم؛ يذكر الونشريسي أن جامع سوسة بإفريقية كان يجتمع فيه الخصوم بين يدي القاضي، والشيء نفسه بجامع مراكش بالمغرب الأقصى[26].

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

نخلص إلى أن للمؤسسات الدينية أهمية كبيرة في حياة سكان بلاد المغرب الإسلامي عامة، والمغرب الأوسط خاصة، فإضافة إلى وظيفتها الدينية والروحية، كانت لها وظائف أخرى متعددة، كالتعليم والقضاء، وحتى مقرا للإمارة والشورى في المراحل المبكرة للفتح الإسلامي، هذا من جهة، ومن جهة أخرى كانت تجسد فنا معماريا، ومميزا حضاريا لعمّار تلك الجهة من البلاد الإسلامية، بقي كذلك إلى يوم الناس هذا، ما يفسر الاهتمام الكبير لسكان بلاد المغرب الأوسط، وحكامها على حد سواء، طيلة العصر الوسيط ببناء المسجد أولا، عند اختطاط حواضر مختلف الأقاليم.

2.3 ــ أهمية المؤسسات العلمية في الحياة العامة لأهل المغرب الأوسط:

اكتسبت المؤسسات العلمية ببلاد المغرب الإسلامي أهمية كبيرة لا تقل أهمية عن المساجد وذلك نظرا لأهميتها في تطوير المجتمع ونشر العلوم النقلية والعقلية، فبعد استقرار عملية الفتح الإسلامي وظهور ولاية المغرب الإسلامي كولاية وإقليم جديد تابع للخلافة الإسلامية بدمشق عمل الولاة ومنهم إسماعيل بن عبيد الله بن أبي مهاجر والذي كسب ثقة الخليفة عمر بن عبد العزيز –رحمهم الله تعالى– (99هـ/101هـ)، عمل على الاهتمام بالحياة العلمية والثقافية وذلك بجلب العلماء، ونشر العلم الصحيح بين أهل المغرب وتنشيط الحياة الثقافية، فأنشأ الكتاتيب لتعليم الأطفال وكان أول بوادر الاهتمام بالمؤسسات التعليمية ببلاد المغرب[27]، ما ساعد على اندماج أهلها في الحضارة الإسلامية والنبوغ فيها، وكان المغرب الأوسط جزءا هاما من ولاية المغرب الإسلامي الموحد.

اهتم أهل المغرب الإسلامي في عصر الدويلات على تعدد مشاربها بالمؤسسات التعليمية المختلفة، فبنو رستم اهتموا بالكتب والمكتبات فكانت لديهم مكتبة ضخمة سميت بالمعصومة، عمل أئمتهم على تكريس حياتهم لنشر العلم والاهتمام بمؤسساته، وكان للنساء حظ وفير من التعليم، فكانت مثلا أخت الإمام أفلح بن عبد الوهاب عالمة في الحساب[28].

كما اهتم الحماديون بالتعليم، أين كان للمسجد دور أساسي في العملية التعليمية، فلم يكن أي مسجد يخلو من مدرسين، سواء في قلعة بني حماد بوجه خاص، أو في بجاية بوجه عام، وقد عرف عندهم المكان المخصص للتعليم بـــ: (المسيد)، وهو ملحق كان يفرد للناحية التعليمية بالمسجد. ورغم التطور الذي شهدته المنطقة إلا أن المسجد كان من ضمن المؤسسات التعليمية الهامة، حيث

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

أصبح بمثابة دار للتعليم الثانوي أو العالي، إضافة إلى الزوايا التي عرفت كإحدى أهم المؤسسات التعليمية في المغرب الأوسط، أما التعليم الابتدائي فأنشئت له كتاتيب، كمؤسسات لتعلم الصبيان، وحتى البدو الرحل كانت تُضرب لهم خيمة تعليمية عند الحماديين لتعليم صبيانهم[29].

ويمكن أن نعطي قياسا للفترات اللاحقة سواء في مرحلة المرابطين أو الموحدين، الذين حكموا أجزاء من أقاليم المغرب الأوسط فيما بعد، فالظاهر أنهم اهتموا هم أيضا بالمساجد والكتاتيب والزوايا باعتبارها مؤسسات تعليمية مهمة وفعالة في المجتمعات الإسلامية.

وبظهور الدولة الزيانية ظهرت عدة مدارس خاصة في حواضر تلمسان وغيرها، فكانت كملاحق للمساجد والزوايا، فالمدرسة من حيث المبنى والنظام نظير للزاوية، عملت الدولة على وضع يدها على التعليم فيها بغرض إنشاء جيل من الموظفين يعملون على تنفيذ سياستها. كما اهتم ملوك بني عبد الواد ببناء المدارس بهدف إحياء المذهب المالكي والقضاء على فكر الموحدين المذهبي، ومن أهم مدارس الدولة الزيانية: مدرسة أبناء الإمام، المدرسة التشفينية، المدرسة اليعقوبية...[30].

وما يكن استخلاصه وبلوغه في آخر هذا العنصر، هو أن حكام وسكان بلاد المغرب عموما والمغرب الأوسط خصوصا، من الفتح الإسلامي إلى الفترات الأخيرة من العصر الوسيط، كان لهم اهتمام كبير بالمؤسسات الدينية والعلمية، لما لها من أهمية كبرى تسهم بشكل كبير في التطور العلمي والنبوغ المعرفي، وترسيخ الحضارة الإسلامية في بلاد المغرب الإسلامي وتفوقها، والدليل على ذلك ظهور علماء كبار أجلاء عبر مختلف الفترات، أسهموا بعلمهم ومصنفاتهم في إثراء الحضارة الإسلامية والنهوض بها وإعلائها.

4. أهمية الوقف في تطور المؤسسات الدينية في المغرب الأوسط من خلال نوازل "المعيار" للونشريسي.

يعتبر كتاب " المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب "، لصاحبه: أحمد بن يحي بن محمد الونشريسي التلمساني، من أبرز فقهاء المالكية في المغرب الإسلامي، ولد بالمغرب الأوسط بجبل الونشريس (734هـ/1333م)، ونشأ بمدينة تلمسان[31] وتعلم بها وأصبح من بين أهم فقهاء زمانه، و كتابه " المعيار " يعد من أهم كتب النوازل والفتاوى التي حملت لنا صورا

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

عن الواقع الديني والسياسي والاجتماعي والاقتصادي والعلمي بصورة موضوعية وحقيقية في بلاد المغرب الإسلامي وحتى الاندلس.

وللكتاب أهمية كبرى نظرا لغزارة مادته العلمية في مجالات عدة، وبوجه خاص ما تعلق بالأوقاف والأحباس، فحسب الطبعة التي بحوزتنا والتي تحوي 13 جزءا، خصص الجزء السابع منها كله، والذي يحوي ما يربو عن 514 صفحة لقضايا ونوازل الأحباس والأوقاف، في مختلف مجالات حياة أهل المغرب الإسلامي، وفيما سيأتي محاولة لذكر أهم وأبرز النوازل التي تبين أهمية الأوقاف في تطور المؤسسات الدينية والعلمية بالمغرب الأوسط، من خلال الجزء السابع.

لا يمكن بحال فصل المؤسسات الدينية عن المؤسسات التعليمية كون مهمتها متداخلة، فالمؤسسات الدينية لها في أغلب الأحيان وظيفة علمية وحضارية؛ ولعل من أبرز تلك المؤسسات التي كان للوقف دور في تماسكها وتطورها في المغرب الأوسط ما يلي:

1.4 ــ المساجد:

تعتبر المساجد من أهم المؤسسات التي لها دور في حياة المسلمين عبر العصور التاريخية في المغرب الإسلامي من الفتح إلى غاية يوم الناس هذا، لذا كان الاهتمام بها كبيرا سواء من خاصة الناس كرجالات السلطة، أصحاب الوجاهة والجاه، أو من عامتهم،... ومن الأدلة التي تبين أهمية الأحباس والأوقاف في الحفاظ على المؤسسات الدينية وتطويرها في كتاب "المعيار" أو في غيره، ما ورد عن استئثار هذه المؤسسات الدينية بأغلب الموقوفات، فزيادة عن عمليات البناء والتشييد، كانت الأوقاف تضطلع بأعباء التسيير المستمر لها، إضافة إلى العمليات التي تسهم في إصلاحها واستمرارها وتطويرها، ومن ذلك: أجرة القائمين عليها من أئمة ومؤذنين ومعلمين وغيرهم، وتكاليف ترميمها، وتزويدها بالأمور الضرورية كالماء والأفرشة ونحو ذلك [32].

لقد حمل كتاب " المعيار" نوازل كثيرة تبين كيف أسهم الوقف في تطوير المساجد، ومنها على سبيل المثال لا الحصر نازلة مفادها: إذا تهدم مسجد ثم أعيد بناؤه، فهل تجب المحافظة على صورته الأولى؟ وقد كان مصدر هذه النازلة أحد حواضر بلاد المغرب الأوسط وهي: "قسطيلة"، فكان الجواب متمثلا في رد المسجد لصورته الأولى إذا كانت أرضه وقفا حيث أجاب بأن الذي أنشا المسجد جعل للسواري أمكنة، وللمصلين أمكنة على حبس قاعة المسجد، فلا ينبغي أن ترد العمل في

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

مكان المصليين...[33].ما يدل على وجوب احترام الأراضي الموقوفة على المساجد وعدم التعدي عليها أو على الغرض منها.

من النوازل المرتبطة بالوقف على المساجد –وهي كثيرة– تلك المتعلقة ببيان حكم مؤذنين كلهم بمرتبات، وقام أحد منهم، وطلب أن يؤذن أو يقوم بأعمال ينتفع منها المسجد من دون مقابل، ويترك راتبه للمسجد وما يحتاجه، فأجاب الفقيه إذا أثبت أنه ذو كفاية في القيام بالآذان وغيره من الوظائف والأعمال في المسجد، فإنه يُمكّن مما ذكر، ويكون مأجورا على نيته، والله تعالى يحاسبه على نيته[34].

فقُدم المؤذن المتطوع على طالب الراتب، وفي هذا محافظة على الأوقاف، وترشيد في استعمالها، ما يعود على المسجد بالنفع.

نستشف من خلال ما سبق أن للوقف أهمية كبيرة في تدعيم المساجد سواء بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، ولقد بين الونشريسي في مواضع عديدة أهمية الحبس أو الوقف في تطوير المساجد والإنفاق عليها، فأموال الأحباس التي تعطل مصرفه ينتقل إلى مصارف المسجد[35]، وهذا باب مهم من الأبواب المتعلقة بأموال وعوائد الأحباس في تطوير المساجد، فالاهتمام ببيوت الله تعالى، والإنفاق عليها مهمة أساسية من مهام دعائم الوقف، والظاهر أن الفقهاء المتأخرين في تلك الفترة لم يمنعوا من صرف غلة الأحباس في بعضها البعض بما في ذلك أحباس المساجد[36].

ومن نوازل الونشريسي التي ذكرها نازلة تتعلق بنقل أنقاض المسجد الخرب إلى مسجد عامر، فأجاب الفقيه النوازلي بأن يؤخذ نقض المسجد الخرب وينتفع به في سائر المساجد[37]، وهذا مما يسهم في الحفاظ على بيوت الله وصيانتها، لأنها في الأصل وقف على جميع المسلمين وتعود بالنفع عليهم جميعا.

وكان من التجار المسلمين من يحبس من تجارته على المساجد، باعتبار ذلك بابا من أبواب الخير العميم والصدقة الجارية، وممن ذكر منهم: صاحب حانوت كان يوقف درهمين من فائدة تجارته على مسجد كل شهر[38]، ولعل من ينفق أدنى من ذلك أو أكثر، من أمثاله كثيرون.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

ومن النوازل المهمة في باب المساجد مسألة: "هل يصرف فضل حبس مسجد على مسجد آخر؟"[39]، فكانت الإجابة بجواز ذلك إذا كفي المسجد الأول، هذا إن دل إنما يدل على الخدمة الجليلة للأحباس في تطوير المساجد والنهوض بها. وهناك نازلة أخرى عن توسيع المسجد، وذلك بإدخال المواضع المحبسة فيه، فكانت الإجابة عنها أيضا بجواز توسيع المسجد بإدخال المواضع المحبسة فيه[40].

هذه بعض نوازل الونشريسي التي جاءت في إطار التحبيس على المساجد، فنوازله تكشف عن جوانب مهمة من النظم الدينية والاجتماعية والاقتصادية الكثيرة في مجتمع المغرب الأوسط ومنها نظام الوقف أو التحبيس[41].

ما يمكن استخلاصه هو أن ما أورده الونشريسي أو غيره من نوازل حول دعم الوقف والتحبيس للمساجد كان ذا أهمية كبرى، أسهم في الحفاظ عليها وتطويرها، واستمرار رسالتها، من جهة، وبقاءها كشاهد معماري وفني، ميز حضارة سكان تلك الجهة من البلاد الإسلامية عن غيرها؛ من جهة أخرى.

2.4 ــ الزوايا:

تعد الزوايا من المؤسسات الدينية التي أدت دورا في الحياة الدينية والاجتماعية في بلاد المغرب الأوسط، حيث كانت أماكن للعبادة وممارسة طقوس دينية صوفية، إضافة إلى أنها معدة للإرفاق وإطعام المحتاجين من القاصدين إليها، وقد خص حكام بلاد المغرب هذه الزوايا بالرعاية والنفقة، والعمل على وضع الممتلكات وقفا وتحبيسا عليها، نظرا لأهمية المؤسسات الدينية والعلمية في مجتمع المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا؛ فمثلا زاوية "أبي مدين شعيب" بحاضرة تلمسان، كانت لها أوقاف وأحباس كثرة [42].

كان بعض الملوك والحكام يهتمون بشيوخ تلك الزوايا، ويسهرون على التحبيس عليها وتعميرها والنظر فيما يجلب لها المصالح في الحياة الدينية والروحية وحركة التصوف في بلاد المغرب الإسلامي؛ كما عمل بعض أهل الجاه والسلطان على الاهتمام بأولاد الشيوخ المتصوفة من تلك الزوايا، فأجزلوا لهم العطايا والهدايا، واعفوهم من المغارم التي تتعرض إليها العامة، ومنحوهم المغانم والامتيازات العديدة وفي مجالات متعددة، وذلك حسبهم تكريما لهؤلاء الشيوخ وتبركا بهم وبذريتهم

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

الصالحة[43]!! هذا ظاهرا، أما ما خفي فكان الهدف من تلك القربات هو: المقابل، المتمثل في الحفاظ على الوجاهة والسلطان، وكسب العامة من جمهور الناس.

وردت بعض النوازل المتعلقة بالزوايا ومنها ما جاء في المعيار عن حكم دار سماها الواقف " زاوية "، وخط في جدار قبلتها صورة محراب، ثم مات؛ فأراد الورثة بيع الدار كون المورث لم يعمل فيها سبيلا للفقراء والمساكين، وإنما كان سماها زاوية فقط، فأجاب الشيخ أبو علي الحسن بن عطية الونشريسي –رحمه الله تعالى– بأن الأملاك تبقى لأصحابها ولا تُزال عن ملكهم إلا بأمر محقق لا شك فيه ولا ريب، ولا عبرة بتسميتها زاوية أو غير ذلك، وأن صورة المحراب لا تدل على أنها موقوفة ومباحة التصرف للناس[44].

3.4 ــ الرباطات (الأربطة):

عرف المغرب الإسلامي الرباطات منذ بداية الفتح الإسلامي المبارك للمنطقة، وذلك ببناء الأربطة والحصون على الثغور والحدود مع العدو استعدادا للجهاد، ودفاعا عن حوزة الإسلام وبيضته من أعداء الدين،... هذا الأمر جعل أصحاب المال من أهل الجاه والوجاهة والسلطان وحتى من العامة الميسورين، يحبسون أموالهم وأملاكهم لتدعيم هذه الأربطة الجهادية والتي تحولت مع الزمن إلى مراكز ومؤسسات دينية وعلمية بامتياز.

وردت عدة نوازل في كتاب " المعيار" للونشريسي تشير الى تحبيس الأموال من أجل بناء الأربطة والحصون والخنادق، ومن ذلك ما ورد حول حصن بقلعة، كان وقفا لسكنى الصالحين وكان يتوفر على أراضي وقف، وأبار محبوسة، وبعض بساتين النخيل، و لم يبق منهم اليوم أحد؛ فبنى الناس حوله دورا، فصار حصنا لهم يلجؤون إليه، خوفا من الأعراب وقطاع الطرق ومن أعداء الين،... ولولا هو ما عمروه من الخوف المذكور آنفا، فهل يجوز لهم ذلك، حتى يوجد من يعمره على الوجه الذي حبس من أجله؟ فأجاب الشيخ البرجيني – رحمه الله تعالى– بأن الأصل عدم جواز سكنى الناس له مع وجود من يصلح، لكن مع وجود المفاسد التي ذكرت فلا يخفى جواز ذلك لدفعها؛ وأما غلات الموضع المذكور فلا حق للسكان فيه، وإنما يصلح به المحرس المذكور، مع شيء من التفصيل في ذلك[45].

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

كما أجاب –رحمه الله تعالى– عن نازلة حول بيت يشكل جزء منه مَحرسا ورباطا وهو قريب من خندق، قهل يجوز بناء دار في ظهر هذا البيت ويفتح منه باب، ينتفع بها أيام الحصار... فأجاب بأن الأصل هو عدم جواز تغيير الأحباس عن حالها إلا بإصلاح ما تهدم منها...، أما البناء إذا كان يضر بأهل الحبس منع. وأجاب غيره بجواز التصرف في الأحباس بالزيادة والنقص للمصلحة[46].

كما أورد نازلة حول بناء برج على صومعة مسجد لاستطلاع أخبار العدو، وأن ذلك لا حرج فيه لما فيه من مصلحة عامة تعود على الإسلام والمسلمين، رغم أن البناء تم فوق وقف[47].

نخلص من وراء ما سبق ذكره أهمية ودور الوقف في تدعيم الرباطات على الثغور والتخوم، والأربطة والحصون ونحوها، واهتمام أهل المغرب الإسلامي والأندلسي وغيرهم بتحبيس أموالهم عليها، لما لها من دور جهادي وديني وعلمي على حد سواء.

5. أهمية الوقف في تطور المؤسسات العلمية في المغرب الأوسط من خلال نوازل "المعيار" للونشريسي.

تعتبر المؤسسات العلمية والتعليمية في بلاد المغرب الإسلامي، من بين أهم المؤسسات التي لقيت العناية والاهتمام من قِبَل الحكام والأمراء والسلاطين وعامة الناس، على حد سواء، ولعل من أبرزها ما يلي:

1.5 ــ المدارس:

تعتبر المدارس من أهم المؤسسات التعليمية في بلاد المغرب الإسلامي، وخاصة في القرون الثلاث الأخيرة حيث كانت لها أهمية كبرى، ولقيت عناية متزايدة هي الأخرى من الأمراء والسلاطين وعامة الناس، نظرا لمنزلتها وأهمية مكانتها. لذا اهتم السلاطين وأصحاب الوجاهة والمال وحتى من أفراد الناس وعامتهم ميسوري الحال، من أصحاب الأملاك، اهتماما بالغا وكبيرا بالأحباس والأوقاف المتعلقة بالمدارس والمكتبات، لما للعلم والتعليم من منزلة وأهمية في نفوس الناس عامة وخواصهم خاصة؛ ويعتبر القرن (8هـ/13م) هو الانطلاقة الحقيقية لظهور المدارس بمفهومها الواسع، ولعل أول المدارس بهذا المفهوم الواسع تلك التي بناها يوسف بن تشفين في فاس[48].

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

ومن النوازل في هذا المجال والتي تبين اهتمام الملوك والسلاطين بالوقف على المدارس والمساجد من أجل نشر العلم والتدريس، نازلة من أحد سلاطين بني زيان بالمغرب الأوسط، السلطان الزياني أبو زيان محمد بن موسى، كانت له أوقاف على المدارس والمساجد،[49] بيّن له الفقيه أن فضلها بحسب واقفيها، خصوصا إذا كانوا سلاطين، وذلك من أجل تشجيع المؤسسات الدينية والعلمية وإحيائها، نظرا لأهميتها.

وهناك نازلة أخرى تبين مسالك صرف أحباس المدرسة، وأنه يجوز إرجاعه إلى العادة[50]، كما يجوز الإنفاق على المدرسين وصرف غلة الوقف لهم، وذلك من أجل تشجيعهم على العطاء والاجتهاد في تدريس الصبيان.

هذه بعض النوازل التي تبين لنا مقدار اهتمام أهل المغرب الأوسط بوقف أموالهم وأحباسهم من أجل تطور المؤسسات العلمية والنهوض بها.

2.5 ــ مكتبات الكتب والمؤلفات العلمية:

اشتهرت بلاد المغرب الإسلامي بالمكتبات (خزائن الكتب) بأغلب حواضرها، وكانت بها أسواق للكتب التي تزخر بكثير من المعارف والفنون، حتى ذكر أنه كانت تتم المزايدة على الكتب بواسطة الدلال حتى يرفع السعر إلى أقصى ما يمكن[51].

لقد اهتم حكام بلاد المغرب الإسلامي والأندلس بجمع المصنفات الضخمة[52] من مختلف أقاليم العالم الإسلامي، وعملوا على إنشاء المكتبات التي تجمع مختلف المصنفات، إضافة إلى اهتمامهم بتحبيس الضياع والبساتين والاستفادة من غلاتها من أجل نشر العلم والاهتمام بالمؤلفات والمصنفات المختلفة.

كما اهتم أهل الخير والعطاء بوقف الكتب وتحبيسها، فقد ذكر الونشريسي نازلة حول نسبة الانتفاع بالكتب الوقفية، أين سئل أحد الفقهاء عن الكتب المحبسة، إذا نص المحبس على بعض وجوه الانتفاع وسكت عن الباقي، كيف يصنع بها، فكانت إجابة الفقيه أحمد القباب –رحمه الله تعالى– بأنه إن نص صاحب الوقف على بعضها كقوله مثلا: القراءة والمطالعة، فليس للأحد أن ينسخ منها، إلا أن يقول: وغير ذلك من وجود الانتفاع، فمضمون الإجابة وخلاصتها هو أن ينتفع بها بحسب ما أراد صاحبها الذي أوقفها ولا يزيد على ذلك[53].

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

وهناك نازلة أخرى حول من حبس كتبا له، ثم باعها لآخر، وحبسها الثاني، هل يكون فوت لها، وترد إلى التحبيس الأول أم لا؟، فكان رد الفقيه الشيخ أبو محمد بن أبي ويد القيرواني – رحمه الله تعالى– بأنه إذا قدر على رد البيع قبل موت البائع فَعَل، ويبقى حبسا، وان لم يقدر حتى مات الأول مضى البيه لفوت الحيازة، وتصير حبسا بتحبيس المشتري[54].

وفيما سبق دلالة على اهتمام أهل المغرب بتحبيس الكتب ووقفها، لما في ذلك من منافع في تطور المكتبات والمدارس والمؤسسات التعليمية وازدهارها.

6. الخاتمة:

نخلص في ختام هذه الرحلة مع الوقف المتعلق بالمؤسسات الدينية والعلمية في بلاد المغرب الإسلامي الأوسط إلى أهم النتائج والتي تمثلت في الآتي:

– الوقف أو التحبيس من أهم الآليات والنظم الإسلامية التي عرفها أهل الإسلام عموما وأهل المغرب الإسلامي خصوصا، من بعد الفتح إلى آخر العصر الوسيط، حيث كانت بداياته الأولى باكرة مع المسلمين الفاتحين، الذين عملوا على بناء المساجد وحفر الآبار والمواجل وقفا وتحبيسا للمسلمين، وتدعيما لعملية الفتح الإسلامي بطريقة عفوية نابعة من تعاليم الدين الإسلامي الداعي إلى السعي في أبواب الخير والصدقة الجارية.

– كان واضحا جدا أن سكان بلاد المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط خصوصا، سواء كانوا سلاطينا أو حكاما أو من عموم الناس، اهتموا اهتماما كبيرا بالوقف والتحبيس على المؤسسات الدينية وخصوصا المساجد، لما لها من دور كبير في مناحي الحياة المختلفة للمجتمع الإسلامي، وبوجه خاص الحياة الدينية والاجتماعية،... فزيادة عن كونه مؤسسة دينية تقام فيها العبادات والشعائر الدينية، كان أيضا مكانا لنشر العلم والتعليم وتلقين العلوم الدينية والعقلية، كما كان دارا للقضاء، ومقصدا للناس في قضاء حوائجهم، وتسوية نزاعاتهم وأقضيتهم.

إضافة إلى اهتمامهم بالوقف على المؤسسات التعليمية كالكتاتيب والمدارس والمكتبات والزوايا وغيرها، ما تولد عنه ظهور علماء وفقهاء مغاربة مميزين في علمهم ونبوغهم، أدى إلى ظهور منتوج علمي ومصنفات وكتب عديدة في شتى الفنون والعلوم، الدينية منها والعقلية، أسهم في بروز الحضارة الإسلامية وتميزها في تلك الجهة من المعمورة.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

– الوقف والتحبيس كان وسيلة مهمة في تطور وتقوية المؤسسات الدينية والعلمية على حد سواء في بلاد المغرب الإسلامي والأندلس عموما، والمغرب الأوسط خصوصا.

إن الحديث عن الأوقاف والأحباس وأهميتها ومجالاتها، والنوازل المتعلقة بها... حديث لا تسعه بضع صفحات، لذا نوصي الباحثين بالاهتمام بهذا الميدان واستخراج مكنوناته، قديما وحديثا، من بطون الكتب عموما ومن كتب النوازل الفقهية خصوصا، لما تكتنزه هذه الأخيرة من فوائد ودرر، ليس فقط في مجال الوقف بل تتعداه إلى مجالات أخرى.

7. الهوامش:

[1] اختلف الفقهاء في تعريف الوقف، ولكن التعريف المختصر والمختار هو: " تحبيس الأصل وتسبيل المنفعة ". أصل التعريف حديث نبوي شريف صحيح، أورده البخاري في صحيحه، باب: الشروط في الوقف، برقم: 2586، ج2، ص982، ومسلم في صحيحه، باب: الوقف، برقم: 1632، ج3، ص1255. **ينظر أيضا**: ابن عابدين، حاشية ابن عابدين، ج3، ط2، 1386هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان، ص398؛ أبو عبد الله محمد بن محمد المغربي، المعروف بالحطاب الرعيني (ت: 954هـ)، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل** (ت: 767هـ)، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ: زكريا عميرات، ج7، دار عالم الكتب، ص626؛ الشيرازي (ت: 476هـ)، المهذب في فقه الإمام الشافعي، تحقيق وتعليق وشرح وبيان الراجح في المذهب د. محمد الزحيلي، ج3، ط1، 1417هـ-1996م، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، لبنان، ص674؛ منصور بن يونس البهوتي، زاد المستقنع في اختصار المقنع، ط2، 1414هـ-1994م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، ص63؛ إضافة إلى: بوداود عبيد: الوقف في المغرب الإسلامي ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر 2011، ص40-41؛ علي محمد الزهراني: نظام الوقف في الإسلام، رسالة ماجستير، إشراف د. حسام الدين السمرائي ومحمد سعيد الحارثي، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، د.ت، ص45.

[2] البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت: 256هـ-870م): الجامع الصحيح، تحقيق محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1403هـ، ج2، رقم الحديث 2853، ص319.

[3] ابراهيم بن عبد العزيز بن عبد الله الغصن: الوقف مفهومه فضله وأنواعه، بحث مقدم للمؤتمر الأول الذي نظمته جامعة أم القرى بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مكة، السعودية، 1422هـ ، ص22.

[4] بوداود عبيد: الوقف في المغرب الإسلامي ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، ط1، مكتبة الرشاد للنشر والطباعة والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر، 2011، ص73 وما بعدها.

[5] نفسه، ص 79.

[6] رشيد بوروبة: الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها، د.ط، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م، ص129 وما بعدها.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

[7] عبد الحليم عويس: دولة بني حماد، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1991، ص221 وما بعدها.

[8] ابن أبي زرع الفاسي: الروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، د.ط، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972م، ص21؛ بوداود عبيد: المرجع السابق، ص80.

[9] بوداود عبيد: نفسه، ص92.

[10] المرجع السابق نفسه، ص86.

[11] محمود السيد: تاريخ دولتي المرابطين والموحدين ،مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، مصر، 2010م، ص111.

[12] لخضر زينب: الوقف في الدولة الزيانية وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية (633-962هـ/ 1235-1554م)، رسالة دكتوراه، إشراف د.ة مليكة حميدي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة البليدة 02، الجزائر، 2022م، ص97.

[13] نفسه، ص130.

[14] محمد فتحة: النوازل الفقهية والمجتمع (6-9هـ/12-15م)، د.ط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، المغرب، 1999م، ص104.

[15] كمال السيد أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الأوسط من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، د.ط، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1996م، ص104.

[16] بوداود عبيد: مرجع سابق نفسه، ص94.

[17] عبد القادر ربوح: دور الأوقاف في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة (92-898م/711-1492م)، رسالة دكتوراه، اشراف: أ.د خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2012م، ص191 وما بعدها.

[18] المرجع السابق نفسه، ص 82-83.

[19] بوداود عبيد: مرجع سابق نفسه، ص102–103.

[20] المرجع السابق نفسه، ص70.

[21] موسى لقبال: المغرب الإسلامي ،ط 2 ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م، ص30.

[22] ينظر: رشيد بوروبة، مرجع سابق، ص 208– 210.

[23] محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي، ط3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م، ص 98–99.

[24] عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، د.ط، دار الأمة، الجزائر، ج1، 2010م، ص367.

[25] مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية، منشورات الحضارة، الجزائر، ج 2، 2009م، ص281.

[26] كمال السيد أبو مصطفى: مرجع سابق نفسه، ص109.

[27] موسى لقبال: مرجع سابق نفسه، ص103–104.

[28] نفسه، ص237–138.

[29] عبد الحليم عويس: مرجع سابق، ص253.

المجلد: (17) | العدد: (01) | السنة: 2025 | صفحات المقال: 525–548 | ISSN :9577 - 1112 | EISSN : 2602 -5388

[30] ينظر: مختار حساني: مرجع سابق نفسه، ص273 وما بعدها.

[31] ينظر: كمال السيد ابو مصطفى: مرجع سابق نفسه، ص 05 .

[32] بوداود عبيد : مرجع سابق نفسه، ص361.

[33] الونشريسي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت: 914هـ/1508م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب، د.ط، خرجه جماعة من الفقهاء تحت إشراف: محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج 7، ص31-32.

[34] المصدر السابق نفسه، ج 7 ، ص 57.

[35] المصدر السابق نفسه، ج 7 ، ص133.

[36] بوداود عبيد: مرجع سابق، ص371.

[37] الونشريسي، مصدر سابق، ج7، ص143.

[38] المصدر السابق نفسه، ص151.

[39] المصدر السابق نفسه، ص257-258.

[40] المصدر السابق نفسه، ص204.

[41] بلعربي خالد: أهمية كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي في كتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب الأوسط ، مجلة القرطاس، العدد 05 ، جوان 2017، ص14.

[42] بوداود عبيد: مرجع سابق، ص415 ،416 .

[43] كمال السيد أبو مصطفى: مرجع سابق، ص110.

[44] الونشريسي: مصدر سابق، ج 7 ، ص296.

[45] المصدر السابق نفسه، ص232 ،233.

[46] المصدر السابق نفسه، ص232.

[47] المصدر السابق نفسه، ص148.

[48] ينظر، بوداود عبيد: مرجع سابق نفسه، ص379.

[49] الونشريسي: مصدر سابق نفسه، ص266.

[50] المصدر السابق نفسه، ص266.

[51] كمال السيد أبو مصطفى، مرجع سابق نفسه، ص121 ،122.

[52] بوداود عبيد: مرجع سابق، ص325 .

[53] الونشريسي: مصدر سابق نفسه، ص293.

[54] المصدر السابق نفسه، ص337.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

8. قائمة المصادر المراجع:

القران الكريم.

أ/ – المصادر:

- البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل، (ت: 256هـ/870م)؛ **الجامع الصحيح**، تحقيق: محب الدين الخطيب ومحمد فؤاد عبد الباقي، المطبعة السلفية، القاهرة، مصر، 1403هـ، ج2.
- ابن أبي زرع الفاسي، **الروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، د.ط، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، 1972م.
- الحطاب، أبو عبد الله محمد بن محمد المغربي (ت: 954هـ)، **مواهب الجليل لشرح مختصر خليل** (ت: 767هـ)، ضبطه وخرّج آياته وأحاديثه الشيخ: زكريا عميرات، ج7، دار عالم الكتب.
- ابن عابدين، **حاشية ابن عابدين**، ج3، ط2، 1386هـ، دار الفكر، بيروت، لبنان.
- الشيرازي (ت: 476هـ)، **المهذب في فقه الإمام الشافعي**، تحقيق وتعليق وشرح وبيان الراجح في المذهب د. محمد الزحيلي، ج3، ط1، 1417هـ – 1996م، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، لبنان.
- المازوني (أبو زكريا يحي بن موسى ت 883هـ/1478م)؛ **الدرر المكنونة في نوازل مازونة**، د.ط، تحقيق مختار حساني ومراجعة مالك كركوش الزواوي، دار الكتاب العربي للنشر والتوزيع، القبة، الجزائر، 2009م، ج 4.
- منصور بن يونس البهوتي، **زاد المستقنع في اختصار المقنع**، ط2، 1414هـ-1994م، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان.
- الونسريشي، أبو العباس أحمد بن يحي (ت: 914هـ/1508م): **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب**، د.ط. خرجه جماعة من الفقهاء إشراف محمد حجي، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، ج 7.

ب/ – المراجع:

- بوداود عبيد: **الوقف في المغرب الإسلامي ودوره في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية**، ط، مكتبة الرشاد للنشر والطباعة والتوزيع، سيدي بلعباس، الجزائر، 2011.
- إبراهيم بن عبد العزيز بن عبد الله الغصن؛ **الوقف مفهومه فضله وأنواعه**، بحث مقدم لمؤتمر الأوقاف الأول الذي نظمته جامعة ام القرى بالتعاون مع وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، مكة، السعودية، 1422هـ. على الرابط: *https://dawa.center/file/4731*
- رشيد بوروبة؛ **الدولة الحمادية تاريخها وحضارتها**، د.ط، الديوان الوطني للمطبوعات الجامعية، الجزائر، 1977م.
- عبد الحليم عويس؛ **دولة بني حماد**، ط2، دار الصحوة للنشر والتوزيع، القاهرة، مصر،1991.

المجلد: (17)	العدد: (01)	السنة: 2025	صفحات المقال: 525–548	ISSN :9577 - 1112	EISSN : 2602 -5388

- محمود السيد؛ **تاريخ دولتي المرابطين والموحدين**، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، مصر، 2010م.
- محمد فتحة؛ **النوازل الفقهية والمجتمع** (6-9هـ /12-15م)، د.ط، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة الحسن الثاني، عين الشق، المغرب، 1999م.
- كمال السيد أبو مصطفى؛ جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الأوسط من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، د.ط، مركز الإسكندرية للكتاب، الإسكندرية، مصر، 1996م.
- موسى لقبال؛ **المغرب الاسلامي**، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981م.
- محمد عيسى الحريري؛ **الدولة الرستمية بالمغرب الإسلامي**، ط.3، دار القلم للنشر والتوزيع، الكويت، 1987م.
- عبد الرحمان الجيلالي؛ **تاريخ الجزائر العام**، د.ط، دار الأمة، الجزائر، ج1، 2010م.
- مختار حساني؛ **تاريخ الدولة الزيانية**، منشورات الحضارة، الجزائر، ج 2، 2009م.

ج/ – الرسائل الجامعية:

- عبد القادر ربوح؛ **دور الأوقاف في المجتمع الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة** (92هـ-898م/711-1492م)، رسالة دكتوراه، إشراف أ.د. خالد كبير علال، المدرسة العليا للأساتذة، بوزريعة، الجزائر، 2012م.
- علي محمد الزهراني؛ **نظام الوقف في الإسلام**، رسالة ماجستير، إشراف: د. حسام الدين السمرائي ومحمد سعيد الحارثي، جامعة أم القرى، مكة، السعودية، د.ت.
- لخضر زينب؛ **الوقف في الدولة الزيانية وأثره على الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية** (633-962هـ/1235-1554م)، رسالة دكتوراه، إشراف د.ة مليكة حميدي، كلية العلوم الإنسانية، جامعة البليدة 02، الجزائر،2022م.

د – المقالات:

- بلعربي خالد؛ **أهمية كتاب "المعيار المعرب" للونشريسي في كتابة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للمغرب الأوسط**، مجلة القرطاس، العدد 05، جوان.2017. على الرابط: *https://asjp.cerist.dz/en/article/101461*